

تفسير ابن كثير

هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعاني العريضة النافعة في الدنيا والآخره لا تكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله فكلامه لا يشبهه كلام المخلوقين ولهذا قال تعالى : { وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله } أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبهه هذا كلام البشر { ولكن تصديق الذي بين يديه } أي من الكتب المتقدمة ومهيمننا عليه ومبيننا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل وقوله : { وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين } أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانا شافيا كافيا حقا لا مريه فيه من الله رب العالمين كما تقدم في حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب فيه خبر ما قبلكم ونبا ما بعدكم وفصل ما بينكم أي خبر عما سلف وعما سيأتي وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه وقوله : { أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين } أي إن ادعيتهم وافتريتهم وشككتهم في أن هذا من عند الله وقلتم كذبا ومينا إن هذا من عند محمد فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فاتوا أنتم بسورة مثله أي من جنس هذا القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان . وهذا هو المقام الثالث في التحدي فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بمن شاءوا وأخبر أنهم لا يقدررون على ذلك ولا سبيل لهم إليه فقال تعالى : { قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا } ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود : { أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين } ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة : { أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين } وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدا فقال : { فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار } الآية هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدهم له انقيادا كما عرف السحرة لعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من

ﻻ ﻭﺃﻥ ﻫﺬﺍ ﻻ ﻳﺴﺘﻄﺎﻉ ﻟﯩﺒﺶ ﺇﻻ ﺑﺎﺫﻥ ﺍﻟﻪ ﻭﻛﺬﻟﻚ ﻋﯩﺴﻰ ﻋﻠﯩﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ ﺑﻌﺚ ﻓﯩﻲ ﺯﻣﺎﻥ ﻋﻠﻤﺎﺀ ﺍﻟﻄﺐ
ﻭﻣﻌﺎﻟﺠﻪ ﺍﻟﻤﺮﻭﺿﻰ ﻓﻜﺎﻥ ﻳﯩﺒﺮﺀ ﺍﻟﺄﻛﻤﻪ ﻭﺍﻟﺄﺑﺮﻭﺹ ﻭﻳﺤﯩﻲ ﺍﻟﻤﻮﺗﻰ ﺑﺎﺫﻥ ﺍﻟﻪ ﻭﻣﺜﻞ ﻫﺬﺍ ﻻ ﻣﺪﺧﻞ ﻟﻠﻌﻼﺝ
ﻭﺍﻟﺪﻭﺍﺀ ﻓﯩﻴﻪ ﻓﻌﺮﻑ ﻣﻦ ﻋﺮﻑ ﻣﻨﻬﻢ ﺃﻧﻪ ﻋﺒﺪ ﺍﻟﻪ ﻭﺭﺳﻮﻟﻪ .

ﻭﻟﻬﺬﺍ ﺟﺎﺀ ﻓﯩﻲ ﺍﻟﺼﺤﯩﺢ ﻋﻦ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻪ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻪ ﻋﻠﯩﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﺃﻧﻪ ﻗﺎﻝ [ﻣﺎ ﻣﻦ ﻧﺒﯩﻲ ﻣﻦ ﺍﻟﺄﻧﺒﯩﺎﺀ
ﺇﻻ ﻭﻗﺪ ﺃﻭﺗﯩﻲ ﻣﻦ ﺍﻻﻳﺎﺕ ﻣﺎ ﺃﻣﻦ ﻋﻠﻰ ﻣﺜﻠﻪ ﺍﻟﺒﺶ ﻭﺇﻧﻤﺎ ﻛﺎﻥ ﺍﻟﺬﯨﻲ ﺃﻭﺗﯩﺘﻪ ﻭﺣﯩﺎ ﺃﻭﺣﺎﻩ ﺍﻟﻪ ﺇﻟﯩﻲ
ﻓﺄﺭﺟﻮ ﺃﻥ ﺃﻛﻮﻥ ﺃﻛﺘﺮﻫﻢ ﺗﺎﺑﻌﺎ] ﻭﻗﻮﻟﻪ : { ﺑﻞ ﻛﺬﺑﻮﺍ ﺑﻤﺎ ﻟﻢ ﻳﺤﯩﻄﻮﺍ ﺑﻌﻠﻤﻪ ﻭﻟﻤﺎ ﻳﺄﺗﻬﻢ
ﺗﺄﻭﯨﻠﻪ } ﻳﻘﻮﻝ ﺑﻞ ﻛﺬﺏ ﻫﯘﻻﺀ ﺑﺎﻟﻘﺮﺁﻥ ﻭﻟﻢ ﻳﻔﻬﻤﻮﻩ ﻭﻻ ﻋﺮﻓﻮﻩ { ﻭﻟﻤﺎ ﻳﺄﺗﻬﻢ ﺗﺄﻭﯨﻠﻪ } ﺃﻲ ﻭﻟﻢ
ﻳﺤﺼﻠﻮﺍ ﻣﺎ ﻓﯩﻴﻪ ﻣﻦ ﺍﻟﻬﺪﻯ ﻭﺩﯨﻦ ﺍﻟﺤﻖ ﺇﻟﻰ ﺣﯩﻦ ﺗﻜﺬﯨﺒﻬﻢ ﺑﻪ ﺟﻬﻼ ﻭﺳﻔﻬﺎ { ﻛﺬﻟﻚ ﻛﺬﺏ ﺍﻟﺬﯨﻦ ﻣﻦ
ﻗﺒﻠﻬﻢ } ﺃﻲ ﻣﻦ ﺍﻟﺄﻣﻢ ﺍﻟﺴﺎﻟﻔﻪ { ﻓﺎﻧﻈﺮ ﻛﯩﻒ ﻛﺎﻥ ﻋﺎﻗﺒﻪ ﺍﻟﻈﺎﻟﻤﯩﻦ } ﺃﻲ ﻓﺎﻧﻈﺮ ﻛﯩﻒ ﺃﻫﻠﻜﻨﺎﻫﻢ
ﺑﺘﻜﺬﯨﺒﻬﻢ ﺭﺳﻠﻨﺎ ﻇﻠﻤﺎ ﻭﻋﻠﻮﺍ ﻭﻛﻔﺮﺍ ﻭﻋﻨﺎﺩﺍ ﻭﺟﻬﻼ ﻓﺎﺣﺬﺭﻭﺍ ﺃﻳﻬﺎ ﺍﻟﻤﻜﺬﺑﻮﻥ ﺃﻥ ﻳﺴﯩﺒﻜﻢ ﻣﺎ
ﺃﺻﺎﺑﻬﻢ ﻭﻗﻮﻟﻪ : { ﻭﻣﻨﻬﻢ ﻣﻦ ﻳﯘﻣﻦ ﺑﻪ } ﺍﻻﻳﻪ ﺃﻲ ﻭﻣﻦ ﻫﯘﻻﺀ ﺍﻟﺬﯨﻦ ﺑﻌﺘﺖ ﺇﻟﯩﻬﻢ ﻳﺎ ﻣﺤﻤﺪ ﻣﻦ
ﻳﯘﻣﻦ ﺑﻬﺬﺍ ﺍﻟﻘﺮﺁﻥ ﻭﻳﺘﺒﻌﻚ ﻭﻳﻨﺘﻔﻊ ﺑﻤﺎ ﺃﺭﺳﻠﺖ ﺑﻪ { ﻭﻣﻨﻬﻢ ﻣﻦ ﻻ ﻳﯘﻣﻦ ﺑﻪ } ﺑﻞ ﻳﻤﻮﺕ ﻋﻠﻰ ﺫﻟﻚ
ﻭﻳﺒﻌﺚ ﻋﻠﯩﻴﻪ { ﻭﺭﺑﻚ ﺃﻋﻠﻢ ﺑﺎﻟﻤﻔﺴﺪﯨﻦ } ﺃﻲ ﻭﻫﻮ ﺃﻋﻠﻢ ﺑﻤﻦ ﻳﺴﺘﺤﻖ ﺍﻟﻬﺪﺍﻳﻪ ﻓﯩﻬﺪﯨﻴﻪ ؟ ﻭﻣﻦ ﻳﺴﺘﺤﻖ
ﺍﻟﺰﻻﻟﻪ ﻓﯩﻀﻠﻪ ﻭﻫﻮ ﺍﻟﻌﺎﺩﻝ ﺍﻟﺬﯨﻲ ﻻ ﻳﺠﻮﺭ ﺑﻞ ﻳﻌﻄﯩﻲ ﻛﻼ ﻣﺎ ﻳﺴﺘﺤﻘﻪ ﺗﺒﺎﺭﻙ ﻭﺗﻌﺎﻟﻰ ﻭﺗﻘﺪﺱ ﻭﺗﻨﺰﻩ
ﻻ ﺇﻟﻪ ﺇﻻ ﻫﻮ